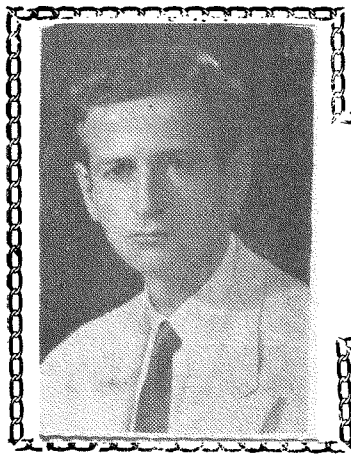

المثقفون والمجتمع العربي

بقلم علي بدور

شغلت قضية المثقفين والمجتمع الجديد ، اذهان المثقفين انفسهم منذ اقدم العصور . فمنذ حضارة اليونان والرومان والعرب ، وحتى عصر النهضة في اوروبا ، والعصر الحديث ، لاتزال قضية الثقافة تتوالى فصولا . فمن اين جاءت هذه الطفرة الانسانية التي لم يقدر لها ان تنتهي الى سكينة وقرار ؟ لعلها نزوع الانسان الدائم عن واقع يخالـه مريضا ، والعودة اليه باسلحة الانقاذ ، وكانت هذه الاسلحة متنوعة : مرة كانت سيفا ومرة قلما ... مرة قنبلة ومرة ضمادا . ولكن الثقافة عموما ، كانت تخلق للمجتمعات اساتذة ونقادا يوجهون سفن المجتمع فلا تطمرها جبال الجليد العائمة في البحار الواسعة ، واحيانا كان هؤلاء الاساتذة والنقاد يتخلون عن دور القيادة والتوجيه ليتخذوا دور من يؤرخ الكارثة .وقد مر على البشرية عهد كان الكتاب يبرون اقلامهم بسيوف الطغاة ، ثم جاء عهد ازدهر فيه الفكر واضحت محافظ الكتب قرابا لهذه السيوف النزقة لاتشهر الا بامرها ـ واضحت الاقلام مخلصة لواقعها ومستقبلها وستبقى كذلك مادامت تغمس بدم القلب النقي . والانسان وهو في اوج قلقه الفكري واصطراعه لبناء الحضارة ، لايزال على ثقة بان الفكر وحده ، سوف ينقذه من وهدة الهمجية التي تردى فيها . والعالم الذي كان عبارة عن قبائل اضحى دولا .. والدول التي كانت في ايام من يقول : « انا الدولة » ، اضحت اليوم تأخذ طريق الاتجاهات الفكرية الجماعية التي تمثل تطور الحضارة الانسانية والمجتمع البشري . لقد كان العالم مثل علبة دبابيس متناثرة ، ولكن الاتجاهات التي تمثل دور قطع المغناطيس ، قد جذبت اليها ماتناثر من دول وشعوب وأمم . وكان ان شهدنا بعد الحرب العالمية الثانية ـ ولاول مرةفي التاريخ البشري ـ تكتلات مذهبية . فمن كتلة غربية الى كتلة شرقية ، الى كتل اخرى تنادي بالحياد عن هاتين الكتلتين المتصارعتين . والعالم بعد ان كان مجهولا اضحى معلوما ، الى درجة يستطاع فيها ارسال التحيات العطرة ملفوفة في جيب صاروخ بين موسكو وواشنطن فلا تخطىء التحية طريقها رغم بعد المسافة . فأين نحن من هذا كله .. اين الثقافة العربية والمثقفون العرب بناة المجتمع العربي الجديد ، واين مجتمعنا الجديد على التخصيص ؟

ليست الثقافة شيئا منفصلا عن الحياة . انها اداة فهم الحياة الحقة . وبدونها يستوى الجماد والانسان . وقد شغلت الثقافة الامم ، قديما وحديثا . اتكون موجهة ؟ ام تكون حرة ؟ ام بين بين ؟ لعلها وهي موجهة اشبه ماتكون بالطعام المحفوظ الذي طال عليه الامد . اما ان تكون حرة بلا ضابط ولا رقيب ، فهي بذلك تستوي والجهل . بل لعل في الجاهل من الاخلاص لوطنه اذا اثير ولقومه اذا استنجد ماليس في المثقف الذي اتقن عدة لغات ، كما لو انه اقتنى مجموعة من اربطة العنق ، ليس عنده الرصيد الحي من الحماسة التي تولدها الثقافة الواعية ، في نفس الانسان المثقف ، لقضايا وطنه وشعبه والانسانية جمعاء . اما ان تكون بين بين ، فهنا الوقفة للتأمل والاستبصار .

ان مجتمعنا العربي ، حافل بالنماذج الثلاثة ، فيه من تعلموا وتثقفوا ، ولكنهم فرديون انانيون لايسألون عن شيء خارج ذواتهم ـ قد يعجب بهم الاجنبي الغريب ـ ولكن سرعان ما يملهم ، ان ثقافتهم كانتالسبيلالوحيد لعزلهم عن مجموع الشعب وعن تاريخه وامله في الحياة . فجيلنا او الجيل الذي سبقنا ، تثقف في مدارس وتربى في بيئات مختلفة . درس في برامج انكليزية وفرنسية وعربية ومتظاهرة بالعروبة . فاذا التقى اربعة ممن درسوا في هذه البرامج ، حصدوا مابذرت فيهم الثقافة المختلفة من شتيت الاراء والعلوم والنظريات . وقد مر على هذه البلاد عهد كانت الناشئة فيه تعلّم تاريخا غير تاريخها ، ولغة ليست لغتها وتعرف عن عالم بعيد اكثر مما تعرف عن العالم الذي تعيش فيه ، وتقف على ارضه الصلبة بكلتا القدمين . كان البطل نابليون وليس خالدا . وكان الشاعر لامارتين وليس المتنبي او المعري . وكان الزعيم كروميل او دانتون وليس احد العمرين . اننا لاننادي بالانغلاق على الذات ، ولكننا ننادي بثقافة متحررة واعية ، تبدأ بالوطن اول ماتبدأ ثم تنتهي بالعالم اذا ارادت ان لاتقف عن الحركة والتقدم . اننا نريد ان يكون للثقافة مالحنان الام الذي يرضعه الطفل مع حليبها ، وماذا ينفع الطفل اذا فقد الام وحنانها ، وجود عشر مرضعات تحمل كل واحدة منهن زجاجة من الحليب المعقم ؟ فقد مر حين على هذا البلد ، كانت الثقافة فيه موجهة لصالح فئة تريد ان يكون الشعب معصوب العينين بشريط احمر ـ كما ارادت فئة اخرى ان تعصبه بشريط ازرق ذي نجوم .. واذا كان الحديث عن الاموات يعد اغتيابا فاننا لسنا مغتابين اذا قلنا ان سياسة العصائب على مختلف الوانها قد فشلت . فلا المفرطون في التطرف الثقافي او الثقافة المعقمة ، ولا المفرطون في الاتجاه المحدود والطريق المسدود ، يمكنهم ان يكونوا ذات يوم قادرين ، على اتاحة الفرص امام الشعب ليستفيد من ثقافتهم وتجربتهم في الحياة . ان الذين سوف يفيدون الوطن هم الذين يؤمنون بشخصية امتهم وفكرهم القومي ووحدة وطنهم ونضال الاحرار ، لتحرير الاجزاء المستعبدة وخلق المجتمع العربي الجديد الذي يطمحون اليه ، لترفرف عليه راية الرفاهية والعدالة والسلام .

((المثقفون والمشكلات الفكرية))

ان ادق مايمكن ان يوصف به تطور المجتمع العربي الحديث ، هو انه مجتمع يتطور وفق نمو وتكامل مضمون القومية العربية . اذ ان القومية العربية ليست سلاحا لرد الغزاة وطرد الاستعمار فحسب ، بقدر ماهي ايضا ، مبدأ للبناء وتحقيق العدالة والرفاهية لابناء الامة العربية

من المحيط الى الخليج . واذا كان علينا ان نبسط راي القومية العربية في مشكلات مجتمعنا ـ من حيث وجوده السياسي والاجتماعي والقومي وتكوين الوسيلة الفعالة لتحرير العرب من الاستعمار وتوحيدهم وبنـاء عالمهم الغتيد ، فان الاساس الذي يمكن ان تجري عليه مثل هذه الدراسة التحليلية يجب ان يكون مسبوقا بلمحة خاطفة عن دور المثقفين في بنـاء هذا العالم الجديد .

يتساءل المثقفون دائما عن مشكلاتنا الاجتماعيه والفكرية التي تمنـع بناء المجتمع العربي الجديد . وهم اذا اختلفوا في تحديدها ، فانهـم قد اختلفوا في اقتراح طرق معالجتها . ولا يعنينا هنا في قليل او كثير ان نعدد مقترحاتهم ـ بعد ان نعدد المشكلات التي ارادوا معالجتها ، مادام لاغنى عن المساهمة في تعداد تلك المشكلات ووضع الحلول لها . رغم اننـا لن نطيل فيها ، اذ يكفي ان نعدد امراض مجتمعنا ، وان نبين المشكلات التي يطرحها تطور فكرنا السياسي ، والقومي ، والفلسفي ، غير ناسـين الاداة التي يمكن ان تتبلور بحسبها هذه العناصر ، وتؤثر في بناءالمجتمع الجديد ، حسب ماتقتضيه ردة فعل الوجدان القومي للامة العربية ، ذلك الذي بدأت تعمل له ثورة مصر العربية منذ عام ١٩٥٢ ، والجمهوريـة العربية المتحدة منذ عام ١٩٥٨ ، نواة الدولة العربية والمجتمع العربـي الجديد ، في غد افضل .

ان امراض مجتمعنا العربي ثلاثة : مرض القيادة السياسية والفكريـة ومرض السيادة القومية . ومرض التطور الاجتماعي . فقد كانت القيادة السياسية للمجتمع العربي ، بعيدة عن الشعور بالانتفاضة الثورية التي بدأت تعيشها الامة العربية ، ذلك انها ممثلة لخلاصة اوجه التطور القيادي الخاطىء في المجتمع ، التي تكونت طيلة اربعة قرون من عهود الظـلام الاخيرة . وهي بحكم وجودها الطبقي ودفاعها عن مصالحها ، لاتستطيع ان تتبنى الدفاع عن حرية العرب واستقلالهم وبناء عالم وحدتهم الكبرى . اما القيادة الفكرية فقد كانت بعيدة عن تفهم روح الشعب وتاريخه المجيد وثقافته القومية ، لانها نهلت الكثير من مبادىء الثقافات الاجنبية ، دون ان يكون هناك اساس حي للثقافة القومية ترتكز عليه تلك المعارف العصرية الغربية . وبعد ان تآمر الاستعمار والقيادة السياسية على خنق روح الاصالة في اللغة العربية والتاريخ العربي ـ وهما قوام كل فكر قومـي متحرر ـ تيسر للثقافات الغربية ان تنبت الكثيرين من مدعي الثقافـة الذين امسكوا بزمام القيادة الفكرية في وقت كانوا فيه ، كالحشائش والطحالب التي تنبت على جوانب المياه الراكدة الاسنة ، فنشأ بـين ظهراني الامة العربية ، فريق من المثقفين ، ارادوا الانحراف بالوجـدان القومي نحو اليسار ، لعدم ايمانهم بأصالة شعبهم وتاريخه وزحفـه البطولي المقدس . كما اراد فريق اخر ان ينحرفوا بالمجتمع نحو اليمين، ولو ادى ذلك الى تمزق فئة ثالثة كانت تمثل ردة فعل الوجدان القومي للامة العربية ، منادية بضرورة محاربة القيادة السياسية المنحرفـة ، والقيادة الفكرية الضالة ، والايمان بأمال العرب في التحرر والوحدة . والى جانب مرض القيادة بشقيه السياسي والفكري . كان المجتمـع العربي يشكو من الاستعمار بنوعيه المادي والمذهبي ، اللذين اخلا بسيادته القومية . فالاستعمار المادي اذا كان يخل بسيادته المادية فان الغـزو المذهبي يقوض اسس جهاده القومي للم شمله الممزق وبناء مجتمعـه الغتيد . اما مرض التطور الاجتماعي ، فتتمثل فيه خلاصة مشكلاتنـا الاجتماعية في الاقطاع وسيطرة رأس المال وتسلطه على الحكم ، وتناقض مناحي التطور بعضها مع بعض .. حيث المجتمعات القديمة تعيش بكافة رواسبها ، وحيث المدن المتطورة والريف المتأخر ، كالبقرة وحلابها . حيث الفقر والمرض والجهل الى جانب الاستغلال والاستثمار والتحكم . ولكـن قيام الثورة العربية عام ١٩٥٢ ، وتصديها لمعالجة هذه الامراض جميعا قد طرح لاول مرة امام الفئات المثقفة ، والقومية منها بوجه خاص ، فرصا فسيحة لمعالجة ومراجعة كافة ماعلق بها من مفاهيم خاطئة تتصل بتطور فكرنا السياسي ، والقومي ، والفلسفي ، واداة الحكم الكفيلة بالقضاء على امراض مجتمعنا التي يشكو منها ، وفق ماينعكس عن مناحي تطـور الفكر السياسي والقومي والفلسفي ، ووفق مضمون حي للقومية العربية يكفل تحقيق مجتمع عربي جديد يطمح اليه الشعب ، والمخلصون مـن مثقفيه بصورة خاصـة .

((مشكـلات الفكـر السياسي))

تبرز لنا في القطاع السياسي من فكرنا ، ثلاث مشكلات : مشكلـة الديمقراطية ، ومشكلة الحزبية ، ومشكلة إو قضية الاتحاد القومي . امـا الديمقراطية القائمة على مفهومها المدرسي المتمثل في الاحزاب والبرلمان والوزارة المسؤولة ورئيس الجمهورية غير المسؤول ، فقد ثبت فشلها ، بعد ان اثبت واقعنا العربي انه لاسبيل الى الخلاص ، من مرض القيادة السياسية ، الا بالخلاص من الانظمة التي تيسر لهذه القيادة فرص العمل فلولا خلاص مصر الثورة من القيادة السياسية ، لمـا استطاعت الخلاص من الاستعمار . ولولا الخلاص من الاثنين ، لمـا امكن المباشرة في تطوير الشعب نحو الاشتراكية . والديمقراطية على صورتها المعروفة في الشرق العربي لم تترسخ في اوروبا الا بعد قرنين من المعاناة السياسية ، حتـى اذا استقرت على اسس ومبادىء واضحة ، كان الشعب متمتعا بتنظيم دقيق ، يشمل كافة جمعياته ونقاباته واحزابه السياسية . واضحت نسبة التعليم تقارب المئة . والتامين الاجتماعي قد طبق على اكثر فئات الشعب . والشعب قد وصل في القطاع الصناعي الى المرتبة الممتازة ، وفي القطاع الزراعي قد حلت مشكلة الملكيات الكبيرة ، سواء بتوزيـع الاراضي الفائضة على صغار الفلاحين ، او ادخال الالة على نطاق واسع الى الحقول واختصار عدد العمال فيها الى اقصى حد ممكن . واضحـت فكرة الوطنية فكرة مقدسة . ولم تعد الخيانة الصريحة ، عبارة عـن وجهة نظر ـ يمكن ان ينادي بها الحزب في الشارع او تحت قبة البرلمان ـ كما كان الحال عندنا في يوم من الايام . ولعله من السخرية ان نعمـل نحن بمثل هذه القوانين التقدمية جدا وان نسلم تنفيذها والسهر عليها الى ممثلي خميرة الفساد الاجتماعي ، التي ظلت في دنان التطور محبوسة طيلة اربع قرون او تزيد . ان الديمقراطية قد تكون مرادفة للحرية .ولكن الحرية تغدو استعبادا اذا كانت ستحول دون تحقيق العلم للجـاهل ، والارض للفلاح الصغير ، والمسكن لمن بات في العراء ، والقصاص العادل للخائن في حق وطنه وامته ، والموت السياسي للفئات التي تدعو الـى عقد الصفقات الكبيرة ، تبيع فيها من الاجنبي ، ارض الوطن وشعبه ، ليحارب به ، ومن عليها ، اعداءه او تؤخر تطور الشعب في مجاله القومي فتحرمه من تحقيق وحدته القومية واقامة عالم يسوده الرخاء والعدل والامن .

اما مشكلة الحزبية ، فانها صنو الديمقراطية . والاحزاب في ظـل الديمقراطية الصحيحة تغدو سرجة للنور والهدى . ولكنها في ظـل الديمقراطية المزيفة ، تغدو اوكارا للرجعية ، والخيانة ، وانصار اليمين واليسار . ولا تستطيع، في مثل هذا الجو الطافح بالخيانة والاجرام ، اية فئة مثقفة مخلصة لامتها وفكرها القومي ان تعمل العمل الصحيح.

فاذا كنا مخلصين حقا لفكرة التحرر من القيادة السياسية ومن الاستعمار لاقامة عالم عربي متحرر ، فاننا لانستطيع ان نحقق امالنا عن طريق الحزبية . واليوم ، وفي كل يوم ستبقى الديمقراطية ذات المفهوم المدرسي ، العدو الاول والاخير ، لكل وحدة او اتحاد بين الدول العربية وحتى ثورة مصر ، لو كانت قد اخذت بمبدأ السماح بتاليف الاحزاب ، لما كانت اليوم تحمل على اكتافها عبء الدعوة للقومية العربية والوحدة العربية بين المحيط والخليج . ولذلك فمن غير المعقول ان يسمح بالعمل الحزبي في ظل دولة تعمل للوحدة او الاتحاد او التضامن العربي . والى ان يتحرر المجتمع العربي من مرض القيادة ومن الاستعمار ، ويقيم الحكم الذي يعبر عن ارادة الامة العربية ،يبدوالسماح بالعمل الحزبي وممارسته من قبل انصار الرجعية وانصار الاستعمار المذهبي ، خيانة في حق الامة العربية وتاريخها القومي واهدافها السامية .

والاتحاد القومي ، كفكرة سليمة يجتمع حولها الشعب كله ـ وكنظام تتفرع عنه كافة السلطات في الدولة ، وكروح فاعلة ، تمد بالحياة اية بقعة من بقاع الوطن ، وكمبدأ ، لبناء المجتمع الجديد في كافة قطاعات البناء ، وكتجمع ، يضم كافة فئات الشعب من العمال الى ارباب العمل، ومن المالكين الكبار الى المالكين الصغار والذين لايملكون شيئا ، ومن ارباب الحرف والمهن الى اصحاب المعامل والمساهمين في الشركات ، ومن المثقفين الى موجهي الثقافة ، ومن اصغر مواطن الى رئيس الجمهورية : ان ذلك كله يبدو انه الطريق الطبيعي للسير في طريق العمل الجدي المثمر ، مادمنا نعطي للمعاني حقها من الالفاظ التي تستوعبها . ان طريق الاتحاد القومي هو الايمان بفكرة . والجهاد في سبيل عقيدة امة صاعدة ، وبناء مجتمع جديد ، عن طريق التعاون بين كافة فئات الشعب باسلوب ديمقراطي ، لتحقيق الاشتراكية العربية .

((مشكلات الفكر القومي))

تعترضنا ونحن نبحث في فكرنا القومي مشكلات عديدة . ولكن اهمها في اعتقادي مشكلة التاريخ القومي للامة العربية ، ومشكلة مبررات الوحدة بين البلاد العربية ، وموقف القومية العربية من تواريخ الشعوب المنقرضة التي عاشت في المنطقة . ومشكلة التجزئة وما اخذ يدور حولها لاعتبارها حدودا لقوميات منفصلة تعيش داخلها يشجع على اقامتها الاستعمار كما هو الحال في عدن او انصار الشعوبية والتبعية في العراق .

ان تاريخ العرب القومي هو امتداد العرب وتفاعلهم ضمن حدود المكان والزمان . فالمكان بين المحيط والخليج ، والزمان منذ ان بدأ سكان المنطقة يتكلمون اللغة العربية ويعيشون تاريخ الامة العربية . واذا كانت الارض العربية من المحيط الى الخليج ، قد كانت في التاريخ القديم ، في بعض اجزاء منها ، مسرحا لحركة تفاعل ادتها شعوب اخرى ليس منها الشعب العربي ، وتمثلت في حضارات متنوعة ليس منها الحضارة العربية ، فان الامة العربية بوجودها الحي قد وضعت على رف التاريخ القديم ، سير كل هذه الشعوب المنقرضة بتواريخها ولغاتها الميتة وعاداتها الاجتماعية التي لم يعد احد يتبناها او يعرفها ، بعد ان حلت محلها اللغة العربية والعادات العربية والحياة العربية . ولكن للاستعمار وانصاره غير هذا الرأي في موضوع التاريخ العربي . اذ بعد ان مزق الاستعمار عالمنا العربي الى دويلات اخضعها لامره ، حاول بكل قواه ، ان يبعث من القبور ، حضارات قديمة في المنطقة . فقال هو وانصاره في لبنان ان الفينيقيين لايزالون احياء ونادوا بالامة السورية . وقال هو وانصاره في مصر ، ان المصريين فراعنة . وهكذا فعل بالاشورية والحثية والكلدانية والبرابرة ، معتمدا بذلك ، على تسلطه على الثقافة ، وتوجيهها حسب مشيئته الى جانب اغفال التاريخ العربي وابطاله القوميين ، فصار هاني بعل الاسطورة بطلا سوريا ، وصار رمسيس وامنحتب من الابطال المصريين ، والفاتحين ومؤسسي الامبراطوريات . ولقد انبت هذا التوجيه الاستعماري ، بعض المثقفين الذين اخذوا ينادون بفينيقيةلبنان وفرعونية مصر وبابلية العراق ، وبربرية المغرب العربي كله . واضحت الخطة هي : احياء قوميات منقرضة لتدعم الحدود السياسية التي اقامها الاستعمار .. الى جانب محاربة القومية العربية الداعية الى مكافحة الاستعمار واجلائه واعادة العالم العربي الممزق الى الثوب الاصيل.

ومن المثقفين العرب القوميين الذين تعرضوا لمشكلة القوميات المنقرضة في المنطقة وغرض الاستعمار من ورائها ، سيادة رئيس الجمهورية العربية المتحدة جمال عبد الناصر . فقد تناول سيادته مشكلة الفرعونية واشباهها مرتين . مرة عندما كان في اللاذقية خلال شهر اذار ((مارس)) الماضي عندما تعرض للفرعونية ونعتها بانها دعوة استعمارية كان يروج لها الاستعمار البريطاني لعزل مصر عن العالم العربي ، ولكن مصر ضربت الطوق الذي احكمه حولها الاستعمار وعادت الى صف اخواتها العربيات للمساهمة في حمل مشعل القومية العربية . وفي المرة الثانية ، في خطابه الذي القاه مساء ٢٢ ـ تموز ((يوليو)) الماضي ، في ذكرى الاحتفال بعيد الثورة السابع . فقال :

استطعنا نحن ان نرى القومية العربية .. نراها رايا سليما . نرى

دواوين نزار قباني

من منشورات دار الاداب

الثمن

قالت لي السمراء	٥٠٠ ق.ل
طفولة نهد	٣٠٠ ق.ل
انت لي	٢٥٠ ق.ل
سامبا	١٠٠ ق.ل
قصائد نزار قباني	٣٠٠ ق.ل

زينة لكل مكتبة

دار الاداب

بيروت ـ ص.ب ٤١٢٣

القومية العربية التي حاول الاستعمار البريطاني منذ أن وصل الى بلادنا ان يبعدنا عنها . ويحاول الاستعمار ان يبث في انفسنا من الافكار مايجعلنا نعتقد اننا لسنا عربا ، ولسنا جزءا من الامة العربية . استطعنا رغم هذه المحاولات التي استمرت ـ ٧٥ ـ سنة ان نرى الدعوة الفرعونية التي حاول الاستعمار ان يبثها بيننا ، ضمن الدعوات التي حاول ان يبثها ضمن الامة العربية ، انما هي محاولة زائفة ، يحاول الاستعمار بها ان يحطم الامة العربية ليقضي عليها جزءا جزءا ويقضي على العرب والقومية العربية لتحل محلها قوميات اخرى . استطعنا نحن ان نعرف مكاننا وان نعرف تاريخنا وشخصيتنا ونعرف اننا عرب ونعلن عروبتنا ونعلن دستورنا اننا جزء من الامة العربية ونعود الى مكاننا الطبيعي الذي كنا فيه . »

وهكذا فقد اعلن المفكر القومي العربي رأيه في القوميات التي حاول الاستعمار ان يبثها بيننا في المنطقة كالفينيقية والاشورية والحثية والكلدانية ، ومن بينها الفرعونية بقصد : تحطيم الامة العربية والقضاء عليها جزءا جزءا والقضاء على العرب والقومية العربية لتحل محلها قوميات اخرى ، على حد تعبير سيادته .

وموضوع الدعوات المنحرفة هذا يقودنا الى موضوع مبررات الوحدة بين البلاد العربية . ان مبررات الوحدة كامنة في التاريخ العربي وحده. وليس في تواريخ هذه الامم والشعوب المنقرضة في المنطقة . فلا يعقل ان نستشهد بمعركة خاضها فاتح من الفاتحين القدامى ، على عوامل الوحدة بين بلدين عربيين مثلا . والرئيس عبد الناصر في كل خطبه لم يستشهد الا بمعركة حطين وعين جالوت ، اللتين تم فيهما طرد الغزو الاوروبي وغزو التتار . انه لم يستشهد وحاشاه ان يفعل بوصول جيوش امنحتب الى اراضي الاقليم الشمالي في ٢٦ ايار « مايو » لاول مرة منذ ٣٤٠٠ سنة محققة بذلك الاتحاد بين مصر والاقليم الشمالي لاول مرة على حد قول محرر الاهرام في العدد الصادر بتاريخ ٢٢ ـ ٥ ـ ١٩٥٩ « الصفحة الخامسة » . ولم يستشهد بمعارك رمسيس ضد الحثيين ، لان ذلك معناه الاعتراف بامتداد تواريخ هذه القوميات المنقرضة الى تاريخنا الحديث . اذ كيف يجوز اصلا ان نسمي المعارك القديمة معارك وحدة في وقت كان يؤرخها التاريخ القديم نفسه على انها صراع وغزو ، ولم يكن هناك فكرة القومية العربية الرامية الى التحرر والتوحيد ؟

هذا ماتثيره فكرة التاريخ القومي للامة العربية ، ومشكلة مبررات الوحدة ـ على ضوء التاريخ ـ بين البلاد العربية . اما ماتثيره فكرة التجزئة وما يدور حولها من عوامل انشاء وطن قومي ، اسوة بماحدث في نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ ، فالامة العربية من محيطها الى خليجها لاتعترف بالتجزئة التي اقامها الاستعمار ضمن الرقعة العربية . وهي نتيجة لذلك لاتعترف باية نسبة تبلغها فئة من الفئات داخل اية رقعة حدد لها الاستعمار ، حدودها حسب الجهات الاربع . لان الوطن العربي وحدة لاقسمة فيه ، وكل عربي له جزء يخصه كفرد من الوطن العربي الكبير . ولن تنجح محاولات الانكليز في عدن لجعل العناصر المحبوبة من بلاد الكومنولث البريطاني اكثرية ، وكذلك لن تنجح محاولات انصار الشعوبية والانحراف في العراق لقطع كل صلة للعراق العربي بالعروبة . ولان العروبة اذا ارادت ان تحصى عددهم مادامو قد ارادوا الخروج عن صفها ، فلن تحصيه على اساس نسبتهم الى سكان العراق بوضعه الحالي الذي اقامه الاستعمار ، بل ستحصيهم على اساس نسبتهم الى سكان العالم العربي ، كوحدة متماسكة ، من المحيط الى الخليج . وهكذا تعلن الامة العربية ، رأي القومية العربية في الحركات الانفصالية ، في كل مكان يرتفع فيه للاستعمار واعوانه رأس لتهوى عليه قدم . رغم ان القومية العربية في الاساس ، هي فكرة لاتقوم على دعوة عنصرية او عرقية . انها حضارة وثقافة في رأس العرب . والعربي هو من عاش بين حدي المحيط والخليج ، وشارك المواطنين في بناء حياتهم والدفاع عن القيم التي يؤمنون بها ، تلك القيم التي تميز شخصيتهم القومية وفكرهم ومجتمعهم ، ومطامحهم وآمالهم الممتدة عبر المستقبل .

« مشكلات الفكر الفلسفي »

ذهب كثير من مثقفينا الى محاولة النقاش والدراسة لابتكار مذهب عربي يلصقونه بمضمون القومية العربية ، مدعين لذلك ان للغرب فلسفته الخاصة به ، وان للشرق فلسفته الخاصة به ، فلماذا لايكون للعرب فلسفتهم الخاصة بهم ايضا ؟ ولكننا نريد ان نتساءل ، هل جاءت المذاهب المعاصرة عن طريق وضع فلسفات واضحة المعالم ، ام عن طريق تطور الحضارة الحديثة ؟ وبمعنى اخر ، هل كانت عن طريق الافكار المجردة التي ليس فوقها امثلة مادية كما يرى فلاسفة الغرب وعلى رأسهم هيجل؟ ام عن طريق تطور وسائل الانتاج ومضاعفات هذا التطور ، كما يرى الفلاسفة الشيوعيين وعلى رأسهم ماركس وانجلز ؟ ذلك ان اي تفكير مماثل قبل الاجابة على هذه الاسئلة ، لايجاد فلسفة عربية ، سوف يصطدم بواقع تطورنا السياسي والقومي والاقتصادي . لاننا لانزال كي نتخذ موقفا عروبيا ، كاتجاه فلسفي ، بحاجة الى مستويات مماثلة. الى تفاعل داخلي .. الى ترابط بين جزئيات الفكرة لتؤلف فكرة كبيرة ، دقيقة ماثلة في العيون والاذهان والقلوب ، واضحة المعالم والحدود .

ويكاد ينقسم المنادون بهذه الدعوة الى قسمين : قسم صادق الرأي مخلص النية ، يحاول بدافع ايمانه بالقومية العربية ، والامة العربية ووحدة العالم العربي ، ان يدعو الى هذا التمذهب الجديد ، ليضفي على مفهوم القومية العربية ، كامل مستلزمات الدعوة الجديدة كرسالة تحرر من الاستعمار المادي والمذهبي من اجل الوحدة ، ورفع مستوى الفرد وتطبيق العدالة والمساواة بين المواطنين ، وتوضيح موقف المواطن من الدولة ، والدولة من المواطن ، وقضية الحرية ، والسلطة ، والملكية والنشاط الفردي، والارث، وهلم جرا . اما الفريق الاخر فانه يناقش الموضوع من زاوية مغايرة ، تظهر ببساطة دعوة القومية العربية واظهارها بمظهر العاجز عن اثبات وجوده وسط زحام العالم المتصارع بمذهبه .. وان القضية العربية ليست على درجة من النضج ، ليصح اعتبارها متكاملة القواعد والاسس ، محددة السمات والابعاد . وقد لايكتفي هذا الفريق بذلك بل يظهر مدى التفاوت في التقدم من قطر الى قطر ، ومدى اختلاف الجذور التاريخية لسكان هذه الاقطار واستحالة توحيدها لتسطر رسالة التقدم والحرية والاخاء !

الذي يخيل الي ان العروبة ليست بحاجة الى مذهب اسوة بالكيانات الاخرى . بل هي بحاجة الى ان تتبين موقعها على خريطة العالم ، واتجاهها السياسي والاقتصادي ، وتعاملها مع اي من المعسكرين في المجال الدولي او كليهما . ان العروبة تسعى لان تلم كيانها المادي . هذه حقيقة مهمة يجب الالتفات اليها ، والى ان يتم جمع هذا الكيان في دوله موحدة او اتحادية ينبغي وضع خطة لا مذهب . خطة موقتة تنتهي مهمتها عندما تصل العروبة الى هدفها القصير . فاذا وصلت الى هدفها هذا بالذات لم نستطع ان نتنبأ ولكننا نستطيع ان نقول انها هناك يمكن لها ان تفكر

في الفلسفة وفي اعتناق المذاهب الجديدة ، مادامت تنبع من أرضها وثقافتها ومجتمعها ، ليست شرقية او غربية ، ولكن اشبه بالزيتونة التي يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار . ان الوحدة الشاملة ليس مبررها المذهب الفلسفي . والعالم العربي الواحد ليس مبرره المذهب الفلسفي. واستباق الحوادث لن يسهل اختراع هذا المذهب . اذ لايعقل ان يكون عندنا فلسفة عربية ، قبل ان نتحرر من الاستعمار ، ونتوحد ونتطور ، وفق نسق واحد ، عند ذلك قد تنبت الفلسفة العربية وسط هذه البيئة العامرة بكل مقومات الحياة الخالقة ، كما نبتت ذات يوم في بغداد ، عندما استوى المجتمع والفكر والتقدم . ان الفلسفة اصعب من كافة فنون الادب . ونحن لا نزال حتى اليوم بلا ادب عربي يمثل وجه العروبة المضيء ويعبر عن خلجات قلبها الصافي فهل يكون عندنا فلسفة تصل الى درجة تفلسف فيها فكرة القومية العربية ؟ لعل المثقفين المهتمين بفلسفة العروبة ان يوجهوا جهودهم الى تجويد ادبهم من شعر وبحث وقصة ، فكل ظني انهم يساهمون – ان فعلوا – الى حد كبير في تحقيق البيئة الصالحة التي تنمو في رحابها بذور الفلسفة ، وبراعم التفكير الفلسفي العتيد .

كان الفكر العربي الحديث وفي مجاله القومي بالذات يدور في حلقة مفرغة ، لا من حيث المساهمة في شرح عوامل واسباب وحدة العرب ووحدة تاريخهم ، بل من حيث ايجاد الوسيلة التي يمكن ان تحقق وحدة العالم العربي ، وتعالج امراض القيادة والسيادة والتطور ، وتعطي الرأي الحاسم في مفهوم الديمقراطية المدرسي والحزبية المتنازعة ، والاتجاهات المذهبية الرامية الى تفكيك العالم العربي ، وتبين بشكل واضح دور الدول العربية ، الصغيرة منها والكبيرة في معركة التحرر والوحدة وتسهم الى حد كبير في تخطيط طريق الحياد المادي عن الغرب والمذهبي عن الشرق ، وتدقق على موقف العروبة من اسرائيل ، ومن الاستعمار الذي يساندها ، وتضع لاول مرة في تاريخ الفكر العربي ، بذور الفلسفة العربية المنتظرة ، وبراعم التفكير الفلسفي العتيد ، وتتيح للعقل العربي ان يبدع ذاته ، ويعبر عن مكنون هذه الذات الخالقة . ان الاسس العشرة التي سنوردها فيما يلي – رغم انها وضعت عام ١٩٥٧ – لاتزال تعبر عن حقيقة وضعنا الاجتماعي وتعالج امراضنا في القيادة والسيادة والتطور وتحسم الرأي في مشكلات تطورنا السياسي والقومي والفلسفي ، وتضع العروبة في حال الاخذ بها والدعوة لها ، على عتبة المجتمع الواحد والفكر الواحد ، وبذور الفلسفة المنتظرة :

١ – العروبة لايوحدها الا بقاؤها على الحياد بين المعسكرين ، وما شاءت السياسة الدولية ان توزع العالم الى معسكرات . العروبة مع معسكر العروبة .

٢ – حياد العروبة ايجابي لا سلبي . بمعنى انها تتعاون مع كل معسكر في الحدود التي لاتجعلها في نظر المعسكر الاخر متحيزة ضده . والعروبة هي التي تقدر هذه الحدود ، وليس احد المعسكرين او كلاهما .

٣ – الثقافة الانسانية خلاصة السعي البشري نحو الحياة الافضل والاسمى . وعلى العروبة المتطورة والمتحررة ومن واجبها ، ان تتابع تطور العلم لدى المعسكرين . لانهما في حال تصارعهما الطاحن المرير المرتقب ، سوف تكون الملجأ الامين للفكر البشري الذي لايطاله الدمار .

٤– الاخلاص لفكرة القومية العربية واهدافها في التحرر والوحدة ، واجب كل دولة عربية تحرص على عدم الارتماء في أحضان احد المعسكرين او احد المذهبين . لان ذلك معناه تاخر جمع عناصر الشخصية العربية المستقلة في نطاق حي متكامل منسجم . وكل بعد عن فكرة الحياد المادي او المذهبي ، من قبل اية دولة عربية يضع نصب اعين الدول العربية الاخرى ، واجب اعادة الدولة الشاردة الى جادة العروبة ولو ادى الامر الى استعمال السلاح .

٥ – ثروات الارض العربية ملك للامة العربية تنفق في رفع شأن شعوبها ومساعدة بعض الدول العربية التي لاتساعدها اوضاعها ، على تحمل تبعات الدولة الحديثة ، ريثما تدنو مرحلة الدوبان في الكيان العربي الكبير .

٦ – الديمقراطية الغربية القائمة على تعدد الاحزاب وتوزع المسؤولية بين البرلمان والحكومة واعتبار رئيس الدولة غير مسؤول ، في ظل اوضاعنا الاجتماعية المتأخرة المتنافرة ، تفسد قوى الامة التي ينبغي اعتماد الطرق الكفيلة ، للتعجيل بتطورها . فالسرعة في العمل . والحزم . والاعتماد على رأي الاخصائيين كل في مجاله : اسلوب ينبغي اتباعه ، بتطوير انظمة الحكم في بلادنا نحو حكم لايقوم على تعدد الاحزاب ولا يفسح المجال للمساومات على حساب مصلحة الامة ، بل يهدف الى اشاعة العلم والصحة والرفاهية في الريف العربي ، ولدى الطبقة المتوسطة ، والدنيا من سكان المدن ، اسوة بما حدث وبما سيحدث في مصر الثورة مؤخرا .

٧ – الاسراع دون ابطاء لاقامة اتحاد بين الدول العربية المتحررة ،والتي لاترتبط مع اي معسكر من المعسكرين بقيود واتفاقيات او معاهدات ، تؤثر على سير هذه الدول وتطورها في زحمة الصراع العالمي .

٨ – ان مصر اليوم هي الدولة الاكثر نشاطا والاوفر قوة ، للقيام بالدور الذي يتوجب عليها ان تقوم به ، كدولة كبرى ، في مجموعة الدول العربية . وهذا مايجب ان تعترف به الدول العربية جميعا بما فيها مصر كما ان اسرائيل والاستعمار الذي يدعمها ، هما السرطان الذي يؤخر تحقيق الاتحاد بين الدول العربية ، سواء على نطاقه الضيق او الواسع. ولا وحدة شاملة بوجود اسرائيل ، كما انه لازوال لاسرائيل بدون الاعتراف بدور مصر الرئيسي في تصفية الوحدة الشاملة بالذات . ولا وحدة بدون حياد .

٩ – تصفية متناقضات الحياة الاجتماعية ، بالاقلال من اخطار الالة على المجتمع العربي ، وتقوية الجيوش المزودة بالعلم والفن : مظهران من مظاهر كل دولة عربية تسعى نحو الاتحاد او الوحدة .. احدهما كسياسة داخلية قائمة على الاخذ بمبدأ العدالة الاجتماعية وتخفيض الفروق بين الطبقات ، باعتماد الضرائب التصاعدية .. وثانيهما كسياسة خارجية تقوم على مبدأ وضع السيف في موضع السيف ، والندى في موضع الندى .

١٠ – من تاريخ الشعوب الحية ومن روح الحضارة الحديثة القائمة على كلا المذهبين ، ومن خصائص الامم والشعوب ، وقوميتنا المتعلقة بالانسانية ، والانسانية التي رائدها السلام الابدي . ومن الحرص على تجنب الزج بالعروبة – كشعب وقضية – في اتون الخلافات الدولية ، ومن السعي الذي لايفتر لجمع الاجزاء العربية المتناثرة في دولة كبرى، حوافز ومثل وبيئات صالحة نقتبس منها معين صورة باسمة لغدنا الباسم المرتجى ، ونشيد جميعا على هذه الارض العربية ، صرح عروبتنا وصرح بقائنا وامجادنا الماضية والحاضرة ، من القادسية وحطين وعين جالوت ومعركة التحرير في الجزائر وعمان ، وحتى معركة الصمود في بور سعيد.

((مضمون القومية العربية))

على ضوء ماتقدم ، من بحثنا في امراض العروبة المتمثلة في القيادة

السياسية والقيادية الفكرية ، والسيادة القومية التي اخل بها الاستعمار بشتى انواعه ، والتطور الاجتماعي المضطرب المتخلف . وبيان عناصر مشكلات فكرنا السياسي ، في الديمقراطية ، والحزبية ، والاتحاد القومي . ومشكلات فكرنا القومي ، في التاريخ القومي للامة العربية ، واسباب الوحدة بين البلاد العربية ، وعدوان انصار الحضارات القديمة ـ بالتعاون مع الاستعمار ـ على التاريخ العربي وفكرة الوحدة العربية . وقضية التجزئة ومحاولة الاستعمار وانصار الشعوبية والانحراف اقامة اوطان تقتطع من جسم الامة العربية . ومشكلات فكرنا الفلسفي ، لفلسفة العروبة وايجاد مذهب فلسفي القومية العربية ، واعتماد الاسس العشرة كأداة توصلنا الى اهدافنا في الوحدة والحرية والمجتمع الواحد ، الذي تنبت فيه ازهار الفكر والفلسفة .. والمناداة بتحقيق ماتنطوي عليه ردة فعل الوجدان القومي للامة العربية برفع شأن اللغة العربية والتاريخ العربي ، والسير في ركاب شعار « وحدة اللغة ووحدة التاريخ » ، من ذلك كله يمكن لنا ان نستخلص مضمونا للقومية العربية ، فيه عصارة تطورنا وما ينبغي ان يكون عليه في السياسة والمجتمع والاقتصاد والفكر والبناء القومي ، يتلخص بما يلي :

ان هذه العناصر الاساسية الهادفة الى احياء الوجدان القومي باعلاء شأن اللغة العربية والتاريخ القومي . والمحافظة على الشخصية العربية فلا تتجزأ من جراء عدوان الحضارات والدعايات الانحرافية والمذاهب العادية عليها . وتحقيق سيادة الامة العربية بطرد الاستعمار . ورسم الطريق للقيادة السياسية المعبرة عن روح الامة وحاجاتها واهدافها المثلى . واتاحة الفرص لان تكون القيادة الفكرية موجهة للمجتمع ، حريصة على اشادة بنياننا الفكري من واقع ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا كسلسلة لا انفصام لها . وتقليل الفروق بين الطبقات وفق روح العدالة وتكافؤ الفرص . واشاعة المناهج الاشتراكية لخلق مجتمع تقدمي النزعة والاسلوب ومحاربة عدوان التجزئة ومحو الكيانات الهزيلة القائمة .وخط تطور المجتمع العربي نحو الوحدة الشاملة والقيادة الواحدة والتجربة الاجتماعية الكبرى .. ذلك كله مانعبر عنه عندما نقول « القومية العربية» عقيدة كل عربي ممتلئ من المحيط الى الخليج . وكل محاولة لتعطيل هذا النهج سواء بالانحراف عن معركة الوحدة الى التجزئة . او صبغ مضمون القومية العربية هذا بصبغة تخرجه عن هذا المضمون ، ولونه الصريح ، لما تأباه طبيعة المعركة النضالية التي ينبغي على العرب ان يكرسوا كافة جهودهم ، لتحررهم من الاستعمار ، وخوض معركة الوحدة الشاملة ، ليجد المجتمع العربي الواحد ـ من المحيط الى الخليج ـ سبيله في التعبير عن الذات ، واتخاذه الوضع الاجتماعي الذي يفرضه واقعه الداخلي وحده .

« دولة المثقفين والمجتمع العربي الجديد »

كان العرب قبل ثورة مصر العربية عام ١٩٥٢ ، يؤمنون بافكار عديدة تكاد تتفق كلها ومضمون القومية العربية . ولكن الذي كان ينقصهم ، انما هو بدء تنفيذ هذه الافكار في دنيا الحياة والناس . كانوا بحاجة الى من يمزق ستار الديمقراطية الكاذب ويكشف عن معدن الحزبية الرخيصة . وكانوا بحاجة الى من يشنها حربا صريحة على الاستعمار واعوانه داخل البلاد وخارجها ، ليؤكد سيادة القومية العربية والامة العربية . وكانوا بحاجة الى من يوقف القيادة السياسية عن الاستمرار في الفساد ، ويوجه القيادة الفكرية في الطريق المؤدية الى بعث تاريخنا العربي الاصيل وتثقيف الجيل بثقافة عربية خالصة . ويمنع انحراف الوجدان القومي نحو اليمين او اليسار . وكانوا بحاجة الى من يخوض معركة الوحدة ويعلنها حربا صريحة على التجزئة والكيانات المبعثرة ويدخل معركة الامة الواحدة والقيادة الواحدة والمجتمع الواحد .. فكانت ثورة مصر العربية عام ١٩٥٢ ، ثورة اضحت بعد سنوات قليلة من عمرها ، مجندة في خدمة القومية العربية ، ومضمونها في السياسة والمجتمع والحكم ، وبعث روح التطور في حياة المجتمع العربي الجديد . وكان هذا التلاقي بين مصر وسوريا ، دليلا على ان العروبة اصالة ، والقومية العربية رسالة ، والوحدة هي مخاض الحرية الحقة والبناء الصحيح في عالم جديد تشرق شمسه على العرب من المحيط الى الخليج . كما كان من هذا التلاقي بين الاقليمين ، جمهورية عربية متحدة ، هي اشبه باللؤلؤة المفردة في عنق العروبة الخالي من اللالىء منذ خمسة قرون او اكثر . جمهورية عربية متحدة ليست رجعية لانها تؤمن بالتطور ، وتؤمن ببعث القوى الدفينة في المجتمع وتفسح لها سبيل التطور نحو الاشتراكية والديمقراطية والتعاونية ، وترسم خط سير المجتمع الجديد ، في طريقه القومي الصحيح فلا ينحرف نحو اليمين حيث الاحلاف والرجعية والانخراط في حماة الاستعمار . ولا ينحرف ايضا نحو اليسار ، نحو تعطيل وجدانه القومي الاصيل وتأخيره عن خوض معركة الوحدة الشاملة شعارها في ذلك « حياد مادي عن الغرب ، ومذهبي عن الشرق » دون ان تغلق نافذة الاخذ والعطاء مع العالم كله ، لمد الحياة العربية والفكر العربي بما يصدر عن حس سليم وطواعية حرة مبدعة .

حمص — علي بدور

شعر

من منشورات دار الاداب

الناس في بلادي	صلاح عبد الصبور
قصائد عربية	سليمان العيسى
مدينة بلا قلب	احمد عبد المعطي حجازي
عائدون	يوسف الخطيب

دار الاداب

بيروت ـ ص.ب ٤١٢٣